على قبر أبي العلاء المعرّي

بقلم رياض معلوف

من نادي القلم الدولي والعصبة الأندلسية

لستين خلت وفيما كنت مسافرًا الى الشهباء عاصمة سيف الدولة كان لا بد لي من المرور بحماة مدينة النواعير التي تئن أضلاعها أنين العاشق الولهان! فاستوقفتني هذه الدواثر الشجية المليئة بالشعر والألحان! يا أضفته على تلك الناحية المخضوضرة من الفضاضة والبهجة! ويا تملأ بـه أجواء حماة — دوائر الأنغام هذه من أصوات عذبة مطربة تأخذ بمجامع القلوب!

ومن طريف قول ابن نباتة في الناعورة:

وناعورةٍ قالت وقد ضاع قلبها وأضلعها كادت تعدُّ من السقمْ
أدور على قلبي لأني فقدتـه وأما دموعي فهي تجري على جسمي!

ومن لطيف ما أنشده أيضاً في الناعورة — شيخه علا الدين بن القضامي:

وذات شجو أسالت مدامعـاً لم تصنها
تبكي بفرط دموع ويضحك الروض منها...

وبعد زيارتي القصيرة لحماه تركتها ونواعيرها وقصدت المعرّة على صهوة سيارة تسابق الريح وطول الطريق كنت أعلل النفس وأعدّ الثواني للوصول الى معرّة النعمان القرية الشهيرة ذات المناظر الباهرة والتي ولد ودفن فيها فيلسوف المعرّة

فوصلت اليها وكلي عيون لأرى بأم العين ما سمعته وقرأته عنها وعن المعرّي! فوجدت القبر الذي ضمّ شتات الشعر لا بل أجوده في قلب جامع المعرّة. كالذخيرة المحتفظ بها بل الكنز الذي يُضنُّ به! خيفةً عليه من الضياع! وبين الشعر والعبادة الالهية نسابة وقرابة واتصال وثيق! ولساعتي تهيبت المزار واختلجت نفسي من فرط الغبطة لبلوغي ما كنت أتمناه وهو هذه الزيارة التي هي فرض على كل من حمل قلماً وكتب حرفاً... وكدت من ولهي بالرؤيا

أقبّل التراب الذي ضمّ رفات شاعر الشعراء وبليغ البلغاء !.. وتحيط بالمكان أشجار الحور والصفصاف على ما أذكر ... ويمرّ النهر ناحية القبر بشجيّ هديره ورنّات مويجاته ! ليطرب روح صاحب — اللزوميات — وسقط الزند — هناك في ذلك الإطار الشعري دُفن أبو العلاء المعرّي الذي أراد أن يُكتب هذا الشعر على قبره لانه لم يتزوّج ولم يجنِ على غيره :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحدْ.. ذلك الاعمى الذي نظر بثاقب بصيرته وأدركَ من المجد الشعري ما لم يدركه بشاعر مبصر لا قبل ولا بعد.. هذا الشاعر الكفيف البصر الذي كان كله عيوناً ... تبصر وتنظر وتحدّق وتحقق !

ولأبي العلاء المعرّي في وصف — الشمعة — قوله :

وصفراء لون التبر مثلي جليدة ... على نوب الأيام والعيشة الضنكِ
تريكَ ابتساماً دائماً وتجلداً ... وصبراً على ما نابها وهي في الهلكِ
ولو نطقت يوماً لقالت أظنكم ... تخالون اني من حذار الردى أبكي !..
فلا تحسبوا دمعي لوجدٍ وجدته ... فقد تدمع العينان من كثرة الضحكِ !..

ومن قوله في هجاء شويعر :

بأي لسانٍ ذمني متجاهلٌ ... عليَّ وخفق الريح فيَّ ثناء
تكلم بالقول المضال حاسدٌ ... وكل كلام الحاسدين هراء !
ومن هو حتى يحمل النطق عن فمي ... اليه وتمشي بيننا السفراء
واني لمثرٍ يا ابن آخر ليلةٍ ... وان عزَّ مال فالقنوع ثراء
ومذ قال ان ابن اللئيمة شاعرٌ ... ذوو الجهل مات الشعر والشعراء !
أتمشي القوافي تحت غير لوائنا ... ونحن على قوّالها أمراء ...
وأي عظيمٍ راب أهل بلادنا ... فاناً على تغييره قدراء
وما سلبتنا العز قط قبيلة ... ولا بات منا فيهم أسراء
ولا سار في عرض السماوة بارقٌ ... وليس له من قومنا خفراء
ولسنا بقرى يا طعام اليكم ... وانتم الى معروفنا فقراء !!

ولله ما أبرع قوله وهو يرثي نفسه وهذه الداليـة جرت مجرى الأمثال واستساغتها الأفئدة والأسماع :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شادي
وشبيه صوت النعي اذا قيس بصوت البشير في كل نادِ
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميادِ
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عادِ
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجسادِ
وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجدادِ
سر إن استطعت في الهواء رويدًا لا اختيالًا على رفات العبادِ...
ربَّ لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازديادِ
إن حزنًا في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلادِ..
ودّعا أيها الخفيان ذاك الشخص ان الوداع أيسر زادِ
واغسلاه بالدمع ان كان طهرًا وادفناه بين الحشى والفؤادِ
واحبواه الأكفان من ورق المصحف كبرًا عن أنفس الأبرادِ
واتلوا عنده بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعدادِ

ويتلخص بلباقة شعرية فائقة وفلسفة في حتمية المصير النهائي لكل حي:

كل بيتٍ للهدم ما تبتني الورقاء والسيد الرفيع العمادِ
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السدر ضرب الأطناب والأوتادِ
بان أمر الإله واختلف الناس فداعٍ الى ضلالٍ وهادِ
والذي صارت البرية فيه حيوان مستحدثٌ من جمادِ
واللبيب اللبيب من ليس يغترُّ بكونٍ مصيره للفسادِ...

والى ما هنالك من آياتٍ في — سقط زنده — ولزومياته وهذه الأخيرة تمشقها وتولّه بفلسفتها وحكمتها العرب والفرنج حتى تُرجم أكثرها الى اللغات الحيّة وهذا لمعري هو المجد كله !